

سوسيولوجيا الأنية الفخارية السومرية....

((الأنية الفخارية السومرية ، تكشف في خطابها الإبداعي ، الأفكار الكامنة والمتداولة في المفاهيم الفكرية الاجتماعية السومرية. إنها بمثابة ابلاغات رمزية تحمل التكوين الفخاري تأويلا وتفسيرا لنظم العلاقات التي تميز الظواهر.))

أ.د. زهير صاحب
الفنون السومرية



قد يكون من المبالغة أن فنون بلاد الرافدين ((الفخار)) يمثل شيئا غير مسبوق كليا في الحضارات الأخرى ، ولكنه مسبوق كليا بأوليته في كل الأزمنة والأمكنة، جذوره كانت ممتدة في تربة التعبيرية الخصبة التي شهدت بدايتها في اختراع الفخار، والحق يقال أن هذا الفن نراه من خلال آثار موجودة في مختلف متاحف العالم، خلق بأيادي فنانيين ، في بداية لاستعمالات مهنية ومن ثم استخدامات معبديه ولكن الرمز لا يترك التكوين ضمن التصنيفات الأسلوبية ، من المؤكد أن الفن الرافد يني هو حقبة طويلة فعلا والمحاولات المبذولة لتصنيف الفنون لم تكن مقنعة كون الفن كان معبديا في بادئ الأمر ولازال يعترف بالمعتقد الديني، وإدخاله قسرا ضمن تلك الدائرة ومن الصعب الخروج منها.

لكن صفة التجديد أخذت موقعا داخل الإطار العام المؤسس والفن الرافد يني يتميز بإطلاق الأفكار القادمة ، إلى آفاق يبدو لي متطورة وأنا أراها حدثوية قبل كل شيء هناك ابتكارات جديدة وقعت ضمن الفنون، طرق التقنية ولدت عدد من المواقف المتضاربة إزاء عوامل الألوان والاكاسيد وأسلوب الحرق المتطور، كان احد الصفات المميزة لفن الفخار، نظم الفن الحديث لها مقاربات في الأفكار قبل ، التنفيذ وموجة التجميع أشرت الحالة الانسيابية الجديدة للرسوم المضافة على الفخاريات واستفادها إلى المعاصرة أمر في غاية الأهمية، كون الآن طريقة المحاورة بدت معقدة وانسأقت إلى العديد من الأفكار التي انبثقت منها وكونت لها نوع من الخصوصية وما تسمى الآن بالمدارس الفنية. انسياق التعبيرية في الفن الرافد يني إلى التعبيرية التجريدية ليس ((بفن التجميع)) كما هو معروف الآن ولكن الاهتمامات المتغيرة للفن بصورتها الشمولية رأته مراجعة للصيغ التي ينبغي أن تكون هي الأخرى فنون بصرية مما أتاح للرسوم المضافة لتكون نقطة انطلاق نحو مفاهيم جديدة، ومنها البيئة والحدث.



من الطبيعي أن نرى ضمن قنوات التحليل عملية التجميع اللوني ، ولكنها ليست بلصيفات وإنما تجميعات يبدو فيها عامل التركيب هو الذي كشف الحالات الامستقرة وإظهار النسق الإبداعي المخلوط مع السطح ذات الألوان الاوكسيدية وليس السطح المصبوغ، إنها إضافات مثبتة طورت الرسم ضمن القاعدة الثلاثية الابعادولكن بقواعد حرة حتى وان وجدت في المعبد وأخذت الصفة القدسية، لكنها تبقى ضمن إطار الفلسفة الجمالية الموحية إلى المؤلف التجريبي كون أشكال الفخار باتت أشكال لحيوانات واقعية في التشكيل ورمزية في المعنى ، الفنان الرافد يني لايخلق شيئاً منعزلاً أو مغلقاً حتى وان كان في دائرة المعتقد ، ولكن يجعل من هذا الفن انفتاحاً واعياً بنفسه الذاتية وبيئته المقحمة بالكثير من التساؤلات وهذا ، ولد صيغا جديد لمحاولات الفهم والإدراك التي لم تكن الآن بكلمات مسموعة وأصوات طقسية بالحن غرائبية وإنما حالة الانتباه ، مطلوبة على الأشكال الفخارية، وما تؤدي من أعمال داخل الحيز المقدس.



هذا المركب المضاف على التشكيل الفخاري هو احد المنحوتات المميزة لنوع من التفكير، الذي تتدفق منه الصورة المتخيلة ولكن احكمها الفنان بشروط القدسية وأبعدها عن المعطى الجمالي وقربها من خاصية المواجهة مع الذات بعدم الوصول لها ، هذا العمل الفخاري عمل بنظام اكبر لان استعماله ليست بطرق مفردة وعادية وإنما حالات التبرك جعلها قريبة من الغرض لان المتلقي ووجوده في حيز المعبد ، لا يبحث عن المعنى وإنما منشغل تماما بخلق الفعالية المؤداة بصورتها المعبرة والقريبة الآن من تجريد الصلة مع أشياء أخرى وارتباطها بسلطة واحدة يشغل بها العامل الروحي أكثر من غيره.

الفخاريات الرافدنية سجلت الحقيقة الاجتماعية من خلال الرسوم المضافة والأشكال النحتية المضافة هي الأخرى لتكن الآن موضع وغرض جدلي وما يعنيه الفنان الرافد يني هو ليس التكديس العشوائي للأشكال والرسوم المضافة وإنما حداثة التشكيل اوجد لها فرصة بان تكون أشياء منفتحة بالرغم من جدلية التشكيل وهذا لايعني انه لم يقيم على قواعد ثابتة وإنما يوحى بأفكار وتختفي منه أفكار ، هذا الجدل قائم ليس في فن الفخار فحسب وإنما مثل بالرسوم الجدارية والأشكال النحتية وحتى فنون العمارة والفنون الدقيقة . إن جوهر الفن يقاس من خلال تاريخية المنجز وهذا الإغراء هو نتاج ليس وسطي وإنما مركز افرزه الفنان الرافد يني من خلال إتباعه لكل مدارس الفن الذي سار بها بقدرة ملحوظة لاقتحام مدارس أخرى إن ظهرت .

وهنا لتكن اللغة التصويرية هي ليست من أنماط مكررة في الفخار وإنما الكم الوفير من هذا الفن هو الذي عرف الحضارة الرافدنية إلى جانب الفنون الأخرى كونه كان سابقا في استخدام اللغة البصرية والصورية وهذا دليل على عدم وجود الكتابة وإنما كانت هناك مهارات منتجة، أعطت للفنان الفخار في بلاد الرافدين أن يقبل بالتعامل ليس لعوامل الاسطورة وتفضيلها على الحقيقة ولا هي حكايات أفقدت الخصائص الفنية وإنما هي قرائن مرعبة أذهلت العالم المعاصر.

محمد العبيدي